

رحلة الأفكار

تأليف / الكاتبة الزهراء فوزي

تحت إشراف / فاطمة محمد

خواطر

رحلة الأفكار

الزهراء فوزي

اسم الكتاب: رحلة الأفكار
اسم الكاتب: الزهراء فوزي
منسق الكتاب : فاطمة محمد "ياقوت"
مصحح الكتاب : فاطمة محمد "ياقوت"
مصمم الغلاف: آية ابنة أحمد
الناشر: دار ياقوت للنشر والتوزيع الإلكتروني
التواصل: 01555191983

<https://www.facebook.com/profile.php?id=61558744370898>

في رحلة أفكاري، أريد أن يتغير واقعي، أن يتغير كل شيء حولي. أريد إيقاف عقلي عن التفكير في كل هذه الأمور التي لا فائدة منها، وأريد أن أشغل عقلي وقلبي بما أريده. فأنا مشتت بين كل شيء، ولا أستطيع الارتكاز على ما أريده. قلبي وعقلي في تناقض دائم، ولكن يوماً ما سأستطيع تحقيق مرادي بالفعل.

ماذا عن الأوان الذي يمر بالعمر؟!
 ماذا عن العواقب التي تلاحقنا؟
 ماذا عن الأحلام التي ننتظرها؟ ماذا عن الأمل الذي يعقبه
 نور بداخلنا، الذي يدفعنا للكفاح والعمل لغد؟
 ماذا لو كان هذا كله مر كمرور الوقت هباءً؟
 مهلاً أيها الزمن، فنحن لم نحقق سوى خيبات وصفعات من
 الخذلان، كَرَبَ الفؤاد وتلاشي الطموح. يلتفت المرء لدقات
 الزمن؛ لعله يدرك شيئاً من آماله، لعله يصل قبل انتهاء
 الأوان.

وكيف لي بأن أمحيك من ذاكرتي وأنت داخل أعماق قلبي؟
 وكيف لي أن أتناسى ما كان؟
 وهو يُعيد لي بهجة روعي، كيف لي أن أنساك؟
 وفؤادي أذعن لحُبك.

رخيم ذلك الفؤاد؛ يحنو لذكراك، ويأبى غيرك؛ يميز
 بلقياك، ويخشى حديثك، أغدو أنظر لما في داخلي، أتساءل
 لماذا طيفك يلاحقني دومًا؟!

أكفهر سحاب فؤادي من كثرة تساؤلي، ويخبرني ألا تشعرين
 بشوقي، وبِحَنيني إليه، ألا ترحمين ما تبقى مني، وتُعيدي لي
 بهجتي؛ حقًا فالحق يُقال أنت أنسي، وبهجتي، وقمر ليالي،
 وحبیبُ عيني يا عزيز الفؤاد.

وَصَمْتُ الْعَيْنِ مُزْدَحِمٌ، وَرِمَشُ الْعَيْنِ فَتَّانٌ، وَفَوَادًا بِكَ مُتِيماً،
يَعْمَهُ الصَّمْتُ وَلَوْ كَثُرَ، وَشَفَاهُ تَرِيدٌ أَنْ تَحْكِي مَا تَصَمْتُ بِهِ
الْجَوَارِحُ، يَغْدُو الْعَقْلُ حَائِرًا، وَيَغْدُو اللِّسَانُ مَتَهَدِّجًا حِينَمَا
يَطْرُقُ الْحَدِيثُ بَابَهُ، تَلَاشِي الْحَدِيثَ عَنْ أَطْرَافِ لِسَانِي
عِنْدَمَا نَظَرْتُ لِعَيْنَاكَ، قُلْ لِي كَيْفَ رِمَشُ عَيْنِكَ فَتَانًا، وَكُلِّي
بِكَ مُتِيماً؟!!

إذا المرء لا يردك إلا تكلفاً؛ فدعه ولا تكثر عليه التأسفا

وأغدو في درب الحياة راجياً بمرء يراك محبباً لفؤاده، مقرباً لروحه، رفيقاً حبيباً لدربه، ودعك ممن رعاك تكلفاً فإنه لم يكن مقرباً، أو همت نفسك بحبه وهو لم يكن سوى عابراً، أولم يقولوا بأن الرفيق ثابتٌ، وغير ذلك زائلٌ؟ فدعك ممن لم يكن إلا زائفاً، وتمهل لمرء صادق، ثابت، وافي في عشرته، والسلام عليه لحين لُقياه.

عيناى تعكس ما أراه، وشخصاً متيماً بهما، وقلباً يتمنى
تحقيق مناه، وعيناً تزين رؤياها كأنها أصابها قتامة لعدم
رؤية ما تحبه، لاحت تنظر لوجدانها، رأتة مغرماً بحبيبه،
مبعثراً ببعده، غدقت عيناى لحسرتها على ما رأت، وغدت
نحو مرأى آخر؛ لعلها تجد ما تتمناه، أوليس العين تبحث عن
ما تحبه؟ أوليس الفؤاد مُتلهفاً له؟ أوليس العقل واقف شامخاً
أمامهم؟ فلا داعى للعين تزين رأيها، ولا داعى لفؤاد يشناق
مادام عقلاً حسم بينهما.

تخونك عينٌ أنتَ كفكفتَ دمعها، ويجحدك الصوت الذي أنتَ
عاشقُه.

ويطرب الفؤاد لوجوده ولاح يتلفت عنه، وينظر حوله في
شروء يأبى أن ينصدم بواقعه، يغدو يبحث عن حبيبه كأنه
يتوقى صدمته، كان فؤادي أولاً يميز مبتهجاً، قانئاً محافظاً
على حبيبه، متمعناً في تفاصيله، يخشى عليه من أمور الدنيا
المُخرية، كأنه يتفادى صدماته، ولكن الآن فؤادي يغدو
متهدجاً، اكفهر ليله، واكفهرت معه مشاعري، وغدقت
عيناى من حسرتى على كسر فؤادى وصدمته فى حبيبه،
فإنى الآن مثل الأرماسِ بَلقَعًا، أصابنى الكرب أنا وفؤادى،
فؤادى الذى لم ينعثق من حسرتة، فؤادى الذى يتلاشى كل
من حاول الدخول إليه كأنه مازال شاردًا يتوقى صدمة
أخرى، الفؤاد الذى كان يحنو على عزيزًا عشقه فغدره،
فكيف لفؤادًا أن يميز ويحنو مرةً أخرى؟
أعان الله فؤادًا أصبح طلالًا من بعد كسره، الفؤاد الذى كان
معطاءً لحبيبه مُتيم به ذو خدين له، فأصبح وجس دائمًا،
ذريفًا فإنه أصبح أفنون، سرمدى لوجعه.

تمزقتُ في داخلي، شعرت بذلك، شعرت وكأنني أفتقد شيئاً
 في داخلي، شيئاً فشيئاً، أشعر وكأنني باهتٌ من داخلي،
 ينقصه السكينة، أعلم أنني من فعلت ذلك بنفسي، أعلم أنني
 تركت مشاعري المبعثرة في أرجائي دون النظر لها،
 وإصلاحها، جعلتُ الأيام، والمواقف تقتلني شيئاً فشيئاً دون
 ملاحظتي لذلك، أدركتُ ذلك عندما شعرت بتمزقي، بعدم
 سلامي النفسي، أعلم أنني أدركت ذلك مؤخراً، أدركته عندما
 احتل في داخلي الخراب، ولكن لا بأس، سوف أصلح ذلك،
 ربّما ليس اليوم، ولكن في يومٍ من الأيام سوف أفعالها، سوف
 أخبر ذاتي بنجاحها، وحينها لن يسعني اتساع الأرض.

ما بين القلب والعقل

تصارع دائم بينهم، ولم أعد أدري أيهم على صواب.
أحدهم يريد التقرب، والآخر يريد الابتعاد عن من تسببوا في
أذاه.

قلبًا قلقًا دائم كل الذي يريده أحبابه، وعقلًا بالحكمة مقيدًا لا
يريد سوى من هم جديرون بحبنا، أوفياء، لا يتغيرون بمرور
الوقت، ولا تتبدل مشاعرهم، ولا يسيئون فهمنا، كل الذي
يريده العقل التفاهم مع أحبته، خلاف القلب فإنه يريد أحبابه
رغم ما فعلوه به. فلا أقول الحق العقل دائم متزن لأموره
متفهم واقعه، والقلب في بعض الأحيان رافضًا لواقعه ساخطًا
في تصارعه مع العقل.

وفي كل الوجهين لا أحد يسوق زمام الآخر لذلك دائمًا في
تصارع.

أعان الله إمرءًا لا يستطيع التحكم فيهما ونزع الخلاف وحسم
ما بينهم.

أرجوك لا تقل شيئاً مجرحاً فإني أنثى!

ألا يكفي نظرة المجتمع إلينا في أمور تكاد تكون خارج عن إرادتنا، ألا يكفي نظرتُهُ للمطلقات، ألا يكفي عقول بعض العقيمين من الرجال، ألا يكفي السجن الذي يقيدوننا به، ألا يكفي بعض المتشددين في الدين، ونظرتهم لنا على أننا لا ينبغي لنا المشورة، أولم يسمعوا قول النبي في خطبة الوداع "استوصوا بالنساء خيراً"؟

ألا يكفي العقد التي تركتها نظراتكم لنا؟ ما ذنبنا أن نتحمل كل ذلك؟ ألا يكفي؟ بلا مهما كانت قوة الأنثى وصلابتها، فإنها لا تتحمل كل هذه النظرات المسيئة لها؛ فإنها رقيقة هكذا خلقنا المولى، فرفقاً بمشاعرنا ووجدانها.

السلام على مجتمع يحافظ عليهن، السلام على أبوين يراعون الله فيهن، السلام كل السلام على قلب رجلاً يحتويها ويساندها لا ليهدمها، السلام على عقول الراقبين.

كان الطريق لجبر قلبي أيسر من الطريق التي سلكتها لكسره

تعلم أنك بمثابة رُوحِي ورفيق دربي ونور فؤادي ، تعلم إنك
تُعنى لي الكثير

تعلم يا عزيزي لو إنك نظرت لفؤادي لوجدته ينبض
بوجودك جوارِي ، لرؤيتك تتبسم ، ألم يكن كل ذلك كافيًا لك
لا تجرح الفؤاد الذي أحبك ، كيف أستطعت هدم كل ذلك ؟
كان في إمكانك أن تظل مكانتك كما هي ، كان بإمكانك أن
تحافظ على القلب الذي أحبك ، ولكن كيف لك ذلك وانت
سلكت كل الطرق لتمزقه بل شوهته كأنه عدوًا لك ،
كان بإمكانك أن تسلك دربًا واحد لجبر فؤادي ولكن كيف لك
ذلك وانت جعلته كالظلال.

ذكرياتنا عالم أكمل من الكون

إنها تعيد الحياة إلى من لم يعد لهم وجود، وتغمرنا بالحنين إليهم، ويجذبنا طيفهم الحنون، يُعيد لنا الروح بعد فقدانها. انعتق فؤادي بمجرد ذكراهم، وتشرّد عقلي لعدم رؤياهم. غدقت عيناى على ما مر بنا، لاح يلتفت حوله لوجودهم، ولكن المكان بلقًا حتى من طيفهم. ذكراهم تُعيد لي الروح وينبض فؤادي بالحياة، وتمييز عيناى وتشتاق لرؤياهم.

السلام عليهم، وسلامًا على ذكراهم الطيبة، والسلام على التراب الذي يحتضن من في الأفتدة مكانهم.

على يقينٍ بأنِّي سوف ألقاه، وسوف نمشي وفي يسراي يُمناه.
 على يقينٍ بروية حبه لي، أنتظرُك يا أنيس ليالي، أدعو الله
 دومًا أن يكون شخصًا يليق بفؤادي، وان يكون على هيئة
 عوضًا، يسكن روعي، يكون لي أمير فؤادي، أكون له سَكَن
 يأمن بجواره، علي يقين بحنوك علي ، ذو خدين لطرقائنا،
 يغمر منزلنا الدف والرحمة، فإن فؤادي وجسًا من القسوة، لا
 أعلم من أنت، ولا كيف سيكون لقائنا، ولكن علي يقين بلقياك
 تحمل بين أضلعك كل الحب والسلام؛ عزيز الروح ، جميل
 الطباع، رفيق الدرب ؛السلام عليك لحين لُقياك.

أعتذر لك على ما بداخلي

أعلم إنني لست على ما يرام، وفي داخلي مدينة من الضجيج. وجداني كالطلال، لا ذنب لك فيما أصابني؛ ولكن أخبرني كيف أستطيع التعافي؟ كيف أمسح على فؤادي، وأروي روعي من جديد؟

كيف تأمن النفس وتأنس؟ وقد أخذت بهجة الروح؛ غدقت عيناى، وكرب الفؤاد، وتبدل الشعور. سوف أعتنق ما بي، ليس الغد ببعيد سوف أكون كقطرة ندى صباحية تغازل بتلات زهرة؛ أتمعن ما في سريرتي، أبى الرجوع لآلامى، كل ذلك من أجلك أنت فقط. أرجو ألا تخذل ما تبقى من الروح؛ حينها أكون كمدينة بلقعة لا تصلح للعيش فيها.

سمائي صافية

وكعادتي دومًا أنا من يبهجها بالنجوم. أتسلل خطوات
أعوامي، وكالمعتاد أنا من أنير عتمة وجداني. أيعقل كل هذه
الأعوام لا يوجد شخص قط يبهج سمائي! أم أنا الذي اخترت
ذلك؟ فإني لا أطيق الحب الكاذب، الفترات المُحملة
بالخيبات، لُقى عيونهم التي تروي قصصًا ماضية. لم يُعد في
العُمر متسع لأشخاص خاطئين، حياتنا لا تليق بأمثالهم.
فنحن دومًا نستحق الأفضل. ضع نجوم سمائك، وأنر
عتمتك، وامض في دنياك؛ لعلك تجد ضالتك.

كم أتمنى أن تشرق شمس آمالي وأحلامي ليبدأ يوم جديد
ليس كأى يوم، إنه اليوم الذي طال انتظاره. ويا فرحة قلبي
لمناله! وكم أتمنى من الله أن أصل إلى غايتي، وحينها سأقول
لقد "أشرقت شمس آمالي وغربت عني أوهامي".

ها هو الحزن يتسلل إلى قلبي من جديد، ولم يكن منسياً من قبل، ولكنني كنت أتظاهر بالنسيان وأدعي القوة. ولكنني هذه المرة، أقسم أنني أسمع كسر قلبي. ذهبوا وتركوني، لكنهم ما زالوا معي. ما زال قلبي يتألم على فراقهم، وكيف لي أن أخبره أن يكف عن هذا الألم الذي يسببه لي؟ كيف لي أن أخبره بذلك وأنا من تركتهم يتسللون إليه؟ بأي وجه أخبره بأن يكف عن هذا الألم الذي يسببه لي، وأن يشفي من جرحه؟ ورغم ذلك كله، يجذبني الحنين إليهم، وهو في حد ذاته موجه للغاية. ألم أعد أتحمل ذلك؟ فإنه يدمرني كلياً، أكاد أشعر بالخراب الذي بداخلي، بعدم موازنتي لنفسي، وبعدم شعوري بالأمان لمن حولي. كيف لي أن أخبرهم بأنهم أخذوا بهجة روعي وفؤادي؟ كيف؟

يوماً ما سأزهر من جديد ولن ألتفت لما مضى. سأنسى كل
 من كان سبباً في جرحي، وذلك ليس لضعف مني، بل لأنني
 أيقنت أن لا أحد يستحق. سأكتفي بذاتي، بحبي لها، وبعائلتي
 التي تحبني، بأمي التي تمنحني الحنان، بأبي الذي هو بمثابة
 الأمان لنا، وبأخوتي الذين أشعر معهم بدفء. سأكتفي لكوني
 أنا. أعلم أنني أدركت ذلك مؤخراً، ولكن لا بأس. سأصلح ما
 أفسده في داخلي، سأبني نفسي بنفسي، سأكون قوية،
 وسأنجح، وسأقوم بدفن أي ذكرى لهم. لن أسمح لهم بتدميري
 مرةً أخرى. سأزهر من وسط اليأس، سأنتصر على حنيني
 إليهم، و سأرمم كسر قلبي.

الحنن يحتل عالمي الداخلي، أشعر بذلك، أشعر بعدم موازنتي لنفسي، وبعدم الأمان لمن حولي. لم أعد أثق بهم. لم يعد قلبي يتحمل. أذهب إلى نفسي في كل مرة وأودت أن أتحدث. اخترت الابتعاد عن الناس، اخترت العزلة والبعد عن العالم الخارجي. اخترت الوحدة، فهنا وجدت ذاتي وعلمت كم أنني بارعة في وصف ما بداخلي وتدوينها من خلال كتاباتي. لكن ما زال قلبي يتألم، كأنه لم يُشفَ بعد، ولكن لا بأس. مع مرور الوقت، سوف يعلم أنني أنقذته من خيبات كثيرة كانت ستصيبه من القرب. أقسم أنني أتلذذ بوحدي ولا أريد أن أقرب مرةً أخرى. يكفي ما حدث بسبب القرب، لا أريد العودة إلى أقاربي الذين كانت ضربتهم مؤلمة، ولا إلى ذلك الصديق الذي خذلني وتركني في منتصف الطريق. إنني في الوقت الحالي أحاول ترميم ما أفسده بداخلي، وترميم نفسي من خلال وحدثي مع ذاتي وتدويني لآلامي، مخبأة بين سطور كتاباتي. مع الوقت، سوف يزول ذلك الحزن وستعود بهجة قلبي. سأزهر من جديد، وحينها سأقول إن عزلتي أصلحت ما أفسده الصديق.

لقد غلبني الحنين وانتصر عليّ، يؤسفني أن أقول ذلك، ولكن ما بيدي حيلة. أوقفتني الذكريات، أوقفني الحنين، لصديقي الذي خذلني ورحل عني دون أدنى مقدمات. أخذ رحاله وذهب لتكملة طريقه بمفرده. أولم نتعاهد على البقاء سوياً؟ أولم نُقسم سوياً أنه لن يفرقنا سوى الموت؟ أولم نكن نتحدث سوياً، أولم نلعن البُعد ونحاول تجنب الفراق حتى لو لبضع ساعات؟ أين ذهب كل هذا؟ أولم تتذكر ذلك قبل الرحيل؟ أولم تتذكر ضحكنا وبُكاءنا سوياً؟ أولم تتذكر يا صديقي كم أحبك؟ ألا يكفي ذلك لك لتبقى؟ لماذا رحلت قبل أن تُخبرني؟ لماذا جعلت القسوة لهجتنا؟ لماذا لم تُعطِ عذراً لموقفك هذا؟ تعلم يا صديقي لو أنك قدمت لي عذراً لما بدر منك ما كنا افترقنا. لكن نظرتك لنفسك بعدم سوء ما فعلته جعلتك في عينك أنا الجاني وأنت المجني عليه. كم كنت أتمنى ألا يجذبني الحنين إليك، لا أريد الرجوع لنقطة الصفر. فأنت لا تعلم كم كنت أعاني، ولكن هكذا دنيانا، "دخلت غريباً إلى قلبي وخرجت منه عزيزاً".

عندما ابتسمت عيناك لصمت قلبي، غرقتُ في ضوء حبك.
 من أول وهلة نظرت إليك فيها، جعلتني أسيرة في حبك.
 وعندما بدأ بيننا حوار، كأنه تلجم لساني، ولكن عيناى تُترجم
 ما بداخلي. كأنه قلبي بدأ نبضاته الأولى. كم إنني شغوفة
 لمعرفة أكثر لأتقرب إليك.

عندما أراك، أريد الركود نحوك مثل طفلة صغيرة تتلهف
 للحديث بتفاهات وتتعثر في حديثها.

عندما ابتسمت لي، شعرت ولأول مرة بفرحة فؤادي. تأكدتُ
 من أنني مُتيمة فيك، غارقة في حبك.

إنني دائماً في اعتقال مع ذكرياتي؛ ذكرياتي التي مرت مع أشخاص لم يعودوا في حياتي. أشخاص غادروا، وقبل أن يغادروا تركوا جزءاً من الذكريات معي، بل لم يكن جزءاً، إنما هي ذكرياتنا التي عشناها سوياً. ويؤسفني أن أقول إنني أتذكرها بأكملها كأنهم لم يغادروا، والحقيقة أنهم غادروا وتركوني أنا وذكرياتي معاً. تركوا لنا الأماكن فارغة؛ الأماكن التي كانت تُؤنس بأحاديثنا وضحكنا وبكائنا أيضاً. وكلما مررت على هذه الأماكن، أتذكر كل شيء. أتذكر كأننا لا زلنا نتحدث سوياً، لا زلنا على تواصل دائم. ولكن الحقيقة أننا افترقنا، وما زالت ذكرياتك معي. عُدْ وخذ ذكرياتك معك، فإنني لست بحاجة إليها، ورغمًا عني أتذكرها، وأدعو الله أن أتخلص منها كما فعلت أنت.

ها قد أتى اليوم الذي كنت أخشاه؛ ها قد فرقتني مثلهم، وأوجعتني، حقًا أوجعتني. أكاد أشعر بتبادل مشاعري. لماذا لم تُخبرني بأنها كانت مجرد وعود كاذبة؟ لماذا لم تُخبرني أنني كنت مجرد مضيعة للوقت بالنسبة لك؟ لماذا جعلتني أتعلق بك مثل طفلة صغيرة تبدأ بالبكاء بمجرد عدم سماع صوتك؟ ألم تقل لي إنني روحك وبهجة قلبك؟ ألم تُخبرني أنني أعني لك الكثير؟ أين ذهب كل ذلك، يا حبيب الفؤاد؟ لقد قتلتني مرتين؛ مرة عندما تركتني، والأخرى عندما رأيتك مع غيري.

تتمايل مع النغمات وتعزف على ألحان فؤادها، هل هي ضحية أخرى؟ أما أنا فكنت مجرد كذبة بالنسبة لك. فلتكن كلماتي الأخيرة في هذه القصة: لا تقول ما لم تقم بفعله، فأنت لا تدري ماذا يفعل كلامك بالآخر. كلامك الذي استوطن قلبي وعليه بنيت مستقبلنا، ولا تحاول مرة أخرى الدخول لقلب أحدهم بالوعد الكاذبة. فلتكن صادقًا كما كنت أنا معك.

غارق في أوهامي وألمي وحزن فؤادي، غارق بصمت
داخلي دون إبداء أي ضجيج خارجي. الحبيب والصديق
والقريب قاموا بحفر بئر لأحزاني وآلامي، لأغراقي
بالذكريات التي تقتص مني يوماً بعد يوم. أولم يعلموا أنني
أسيرة لذكريات وذكريات؟ أولم يكونوا على دراية بمدى
تحسسي لأدق المواقف التي تزعجني؟ بلى، ولكن لا أدري
ماذا أفعل بالشعور الذي يُلاحقني؛ فإنه مثل عدوي يلاحقني
أينما أكون، كأنه يحاول الانتقام مني لخطيئة ما. تجاهلت
آلامي وأفكاري وجميع وجداني على أمل النجاة منها، ولكن
كيف لم يخطر ببالي ولو لوهلة أن كل ذلك سيصطحبني
لأغراقي في عالم لا أعلم عنه شيئاً؟ فأنا في منتصف
المحيط، ليس في أوله لمعرفة إنقاذ ذاتي وإصلاحها، ولا في
أعماقه لضمان سرمدية وحدتي وآلامي. لييتني أعلم كيف أنقذ
ذاتي من الغرق. لييتني لم أدخلهم عالمي المبهج الذي صار
محيطاً من العتمة والظلام الدامس! لييتني أنقذت وجداني من
الطلال الذي حل عليه. لييتني كنت وحيداً كما كنت، ليت!

تَبًا لسذاجتي، لقد تفتت فؤادي، لقد قضيت عليه، جعلته ينبض
بلا روح وبلا بهجة. كأنه يقول لي: أنا الذي قومت بدفع
سذاجتك، لماذا لم تُخبرني، يا ونيس دربي، بأنني كنت بمثابة
محطة انتظار للوصول لما تريد، لماذا لم تُخبرني منذ البداية
أن عقلك وفؤادك مع غيري؟ لماذا جعلتني متيمة بك؟ كان
عليك أن تصل إلى الفتاة التي اختارها قلبك. ما كان عليك أن
تنتظر معي، ما كان عليك أن تعلق قلبي بك. كان بإمكانك
البقاء، ولكن ما كان عليك الدخول إلى فؤادي، فأنت لا تعلم
ماذا فعلت وعودك وكلماتك به! فقد أصبح متيمًا بك، وها هو
بعد ما خرقتة ينزف قهراً ووجعاً على حبه لك. لبيتك لم تكن
معي منذ البداية، لبيتك كنت غريباً عنه كما كنت، لبيتك تعلم
كيف حال قلبي الآن، فإنه مثل الديجور الهالك.

يحتضن أوجاعه. جميع المواقف والذكريات التي مرت بها، يا صديقي، ستزول. لا تقلق، سوف تمضي مثلما مضوا الناس الذين كانوا معك. أعلم أنك تتذكر جميع الذكريات، يغلبك الحنين، تشتاق للماضي رغماً عنك، تشتاق لحبيب ورفيق الماضي، تشتاق لروحك المبهجة. فؤادك ذاته يشتاق لمؤنسه، فؤادك الذي تحمل الكثير والكثير. تحمل فراق الحبيب، وغدر الصديق، ووجع القريب، توجع بما يكفي، ورغم ذلك كله ما زال ينبض متلهفاً لرؤية موجعيه. إنه الفؤاد الذي أحب، ليس من السهل نسيان حبيبه ومؤنسه، فإنه نقي لا دخل له بنفوس الخبيثين الذين رحلوا عنه، فإنه حقاً يشتاق. مثلك تماماً، يحتضن أوجاعه. رفقا بنفسك وفؤادك، يا صديقي. عليك أن تترك الماضي، عليك أن تتحرر من زمام الذكريات، عليك أن ترحم ما تبقى منك.

تأذيت كثيرًا بين الماضي والحاضر؛ ففي الماضي كنت
 أنهار لأتفه الأمور، كنت أترك أصدقائي، ومرحبي،
 وعائلي، بل كنت أترك عالمي بأكمله، وأنحصر في عالمي
 الداخلي المليء بالظلام. الظلام الذي تركه بعض الأصدقاء
 والأحباب، بل لم يكونوا كذلك. يؤسفني أن أقول أنني في
 الماضي كنت هشة الوجدان وضعيفة المقاومة، أعيش في
 عالمي الخاص لأتفه الأمور. ولكنني اليوم، وبكل فخر،
 أستطيع أن أقاوم ما بي. أستطيع مقاومة غدر الصديق
 والحبیب والقريب، وأكاد أقسم بأنني أصبحت لا أبالي
 بأوجاعي. لم أعد صغيرة، فالعالم لا يريد الضعفاء، فهم غير
 مرحب بهم. خذلان، ووجع، وقهر، وظلم، وغدر، وفراق.
 أعترف بأن شعورهم موجه للغاية، ولكن ليس أمامك إلا
 خيار واحد: المقاومة وعدم الانتباه لهذه المشاعر والأوجاع،
 ليس من أجل أحد، بل من أجل نفسي التي تحملت الكثير.
 أعتر بقوتي الداخلية التي تقاوم كل هذه المتاعب المرهقة
 بمفردها. فقد أصبحت أقوى، وأنجح، وأقاوم أوجاعي
 وظلامي الداخلي. أقاوم العالم الموحش والذكريات التي
 ولّت، وأنا بكامل قوتي الوجدانية، وليست كما كنت ضعيفة.
 السلام على النفوس المتعبة، السلام على من يقاومون ما بهم
 ليصبحوا أقوى مما كانوا عليه. السلام لكل القلوب المنهكة
 التي تقاوم أوجاعها، والسلام على المحاربين من أجل بقاء
 أنفسهم.

أفديك بروحي يا حبيب الفؤاد. رغم ما يعتليني من وجع
وأسهم تطعن ما تبقى من روعي، إلا أنني أفديك، يا حبيب
الفؤاد. لو لم يبقَ من روعي إلا القليل، فأنت حبيبي وروحي
وبهجة أيامي، وقرّة عيني، وونيس ليالي. فكيف لي ألا أفديك
وأنت تعني لي الكثير؟ أنزع عنك ما بك من أسهم تقتلك،
حتى لو كانت تقتلني. يكفي في نظري أنك بخير. أه، لو تعلم
مكانتك في فؤادي! فإنه لا يوجد في الفؤاد غيرك، فأقل ما
أقدمه لك هو أن أحافظ عليك وأنزع عنك ما يعتلي فؤادك، يا
حبيب الفؤاد. طبت دومًا في سلام وسكينة، وأبعد الله عنك
أسهم تُرهب سلامك الداخلي وروحك، يا رفيق روعي.

ما الغرض من كفاحي إلا بوجودك بجواري؟ إليك أكتب تلك
الكلمات، يا بهجة روعي. لا أخفي عليك سرّاً، ففي بادئ
الأمر لم تكن لدي رغبة في العمل والكفاح أو حتى الوصول
إلى درجات النجاح. كنت جسداً بلا روح، ولكن برويتك
ومجيبك إلى فؤادي أنرت الديجور الذي كان بداخلي،
وأوقفت الزيف الذي كان يعتلي وجداني. فمجيبك أردتُ
الفوز، الفوز بك فقط، يا بهجة الروح.

سما صافية وليلاً دامس. ودربي طويل، والمتعة في ذلك
أنني بمفردي. أنظر من نافذتي إلى العالم من حولي. أطلّ
على السماء فوقي فأراها مزينة بالنجوم، والقمر مضيء
بينهم. وأطل تارةً على ظلام وهدوء الطريق، كأنه يخبئ ما
به من تعب وهلاك النهار. أسير بمخيلتي، إذا أنارت
الصحراء ما بها، لبقيت تجذب من يمر عليها. ولكن، لا
أتحدث عن الصحراء بعينها. ألتفت إلى ما بداخلي، أشعر
بهدهوء وتشنت وبعض بقايا الظلام، كأنني أشاهد ما بداخلي
عياناً! ولكن رغم ذلك كله، فإنني في قمة انبساطي لكوني
أسير نحو ما أريد، نحو طريقي لمستقبلي. لكوني أسير نحو
صديق دربي، الذي كم كنت أتمنى أن يبقى متواجداً الآن،
فالفؤاد مطمئن لرؤية روح الروح، ورُكنه الهادئ.

في انتظار غروب آلامي. في انتظار غروب آلامي وأحزاني
المتكررة، أريد المكث بمفردي في مكان هادئ يعمّه الهدوء
والسكينة. أنظر إلى بحر ليالي تارة، وتارة أخرى أنظر إلى
السماء في انتظار غروب الشمس، كأنني أتأمل وأتمنى أن
يكون غروبًا لكل ما يؤذي فؤادي ويتعبه. كم أتمنى أن أكون
هادئة في داخلي، أن يغرب عني كل ما يرهق وجداني. لبيت.
مجرد تخيلي لذلك أشعر بهجة بداخلي. فماذا لو حدث؟ أدعو
خالقي أن يرتب لي ما تعثر بداخلي، وأن يعينني على ما بي.
في انتظار غروب آلامي وإشراق بهجة روعي.

أضمد جراحي من كسر عائلتي لي. أستطيع أن أقول الآن إن كل شيء نال مني، حتى عائلتي. نال مني الرفاق والحبيب، وحتى الطريق التي سلكتها نالت مني. وعائلتي، التي ظننتها الملجأ الوحيد لتضميد كسري، فقد قاموا بكسر ما تبقى من ضلوعي. من قال إن العائلة هي المأمن الوحيد؟ فإنني لم أرَ ذلك قط! أين والداي؟ أين إخوتي؟ أين أفراد عائلتي جميعهم؟ فلا أقول، أين محبتهم؟ أين حنانهم عليّ؟ أين حزنهم لتخفيف ما فعله بي الزمن؟ وكيف أجد ذلك كله، وهم كسروا ما تبقى من روحي؟ رضيت بكل ما فعله الزمن بي، ولم أعترض قط، ولكن لماذا لم تُخبرني أن ضربة القاضية لي هي هدم منزلي الذي ظننتهم ملجأئي الوحيد؟ عائلتي، فلا أقول قولي الأخير وأنا أتصيب دمًا: شكرًا لكم لكونكم هدمتم ما تبقى من روحي وقتلتم ما تبقى من حنو. شكرًا لكونكم جعلتموني شخصًا آخر غريبًا عني، ما ظننت يومًا أن أكون هكذا. ولكن ما باليد حيلة، فمن منا يختار عائلته؟

الموت كالقطار لا يستأذن من حوله. أخذ مني من أحببتهم
وأسكنتهم فوادي، أخذ من كانت سيرتهم عطرة في دنيانا. ما
بال الموت في كل مرة يأتي ليأخذ عزيزاً على القلب ويترك
وراءه أوجاعاً لا تنتهي ونوبات من الحزن على من فقدنا.
فوالله، في كل مرة أزور فيها القبور أشعر بتجديد أوجاعي
على فقيدتي. أتذكر وقت وفاتها حين جاء الموت وأنهى كل
شيء، لا عزيز يُنسى، ولا وجع ينتهي. من قال إن الموت
يأخذ الأحباب؟ أعلم أنهم غير موجودين بأجسادهم
وضحكاتهم وبكل ما يخصهم، ولكنهم بداخلنا في عالمنا
الخاص بيننا، بطيفهم وذكرياتهم.

آه من هذا التراب؛ يحمل بداخله أحبابنا. لو استطعت التحدث
إليه لأخبرته أنه يحتضن أعزاء على القلب، فمهلاً عليهم،
والسلام على أرواحهم الطاهرة. فوالله، إنك تحمل بداخلك
فقيدتي التي أود أن احتضنها ولو لمرة واحدة. رويداً أيها
الموت، ما بالك تأتي بعجلة من أمرك؟ فمذ مجيئك، جعلت
جزءاً من فوادي يعلق في الحلقم. رحم الله كل عزيز غاب
عنا، عفا الله عنهم، فاللهم أسكنهم جناتك، وألبسهم من ثياب
أهل الفردوس الأعلى، اللهم ألف مرة.

-

شعور لا يوصف، أشعر وكأن سقمًا أصاب روحي وقتامة
أصابت فؤادي. فلا أهلاً ولا سهلاً بشعور أعتقده لن ينقضي
ويصيب روحي من جديد. وكيف لي أن أعتقد ذلك وكل ما
حولي يلوح بعكس ظني.

أسير في طرقات الحياة وحيدًا، تائهاً، منسيًا دائمًا. لم أجد من يميزني حتى في يوم مولدي. لم أكن أعتقد أنني منسي لدرجة هذه. أخوض معاركي بمفردي، أفرح بمفردي، أنظر إلى الطلال الذي بداخلي وأحاول ترميم ذاتي بمفردي. أحتفل بيوم مولدي مع ذاتي، أودع عامًا مضى بكل ما فيه من فرح وحزن، وأستقبل عامًا راجيًا من ربي أن يكون بجانبني شخصًا حقيقيًا في حبه لي، صديقًا وفيًا، قريبًا غير مؤذٍ. كل عام وأنا هنا بمفردي، كل عام وأنا أرمم نفسي بذاتي. كل عام وأنا قريبة للجميع، بعيدة بالنسبة لهم. كل عام وأنا أقوى من ذي قبل.

وروحًا في الطلال تسير، وقلبًا منهمغًا بين الماضي والحنين،
وجسدًا أتعبه الليل الطويل، وعينًا تتذكر أحداث الماضي
الأليم.

أحببتك، وحبك يعزف على أوتار فؤادي. أحنّ عند سماعي
للحن فؤادي وهو يتراقص على نغمات صوتك، ووعودك
التي تُطرب بها النفس. عشقت الموسيقى منذ قدومك،
بسماعها أشعر بطيفك حولي. أيا قمري ليالي، لبيتك بجواري
فتسمع لحن عود لم تشهده بحور الموسيقى من قبل، ألا وهو
فؤادي يروي عشقه لك. فما سبيل لفؤادي غير ألحان يحرر
بها ما بداخله.

ماذا عنها؟ فهي صديقتي، رفيقتي، هي أقرب الصلات
 لفؤادي، هي الحنو والسمو لروحي. عند لقياك أشعر برذاذ
 رخيم على فؤادي، تزهرين ما في سريرتي، يُطرب الوجدان
 وتتلاشى الآلام بجوارك. عند حديثك تهدأ النفس وتؤمن
 الروح. طيفك مميز من بينهم؛ فماذا عن حضورك؟ أخبريني
 كيف للفؤاد أن يحتوى تفاصيل عينيك، وكيف لي أن أسأل،
 وأنت رفيقة الفؤاد؟ أنيسة الروح، جميلة الطباع، تشبهين
 روعي كثيراً، يا نور دربي. فأنت كهيئة نسمة الصباح
 الباكر؛ تضيفين على روعي الطيب والعنبر. فأهلاً ومئات
 مرحباً برفقتك، معاً لجنان الفردوس المنتهى. فأنت خليل
 الوفي، يا أنيسة الروح والفؤاد.

هناك فائض ضائع من كل شيء. وكل شيء نال مني، حتى
أقربهم لم يعد يفهمني، لم يعنه ما بي. هذا هو الفائض
الضائع في مشاعري. غدوت مرة أخرى كالديجور الهالك،
أعتنق ما بي من آلام وتساؤلات آملاً أن أجد حلاً لفكرة
تتقدني من صراع في سريرتي. تلاشت أفكارني وكربة
الروح، أصبحت كزهرة في البستان أصابها نسيم عليل.
غدقت عينيّ لحسرتي على ما أفاض به الفؤاد، على ما تشعر
به النفس من أذى. فلماذا هذا الفائض مادام هناك روح في
احتياجها لتروي ما أصابها من ظمأ؟

وكيف لي أن أمحيك من ذاكرتي وأنت داخل أعماق قلبي؟
 وكيف لي أن أتناسى ما كان، وهو يُعيد لي بهجة روعي؟
 كيف لي أن أنساك وفؤادي أذعن لحبك؟

رخيم هو ذلك الفؤاد؛ يحنو لذكراك ويأبى غيرك، يميض
 بلقياك ويخشى حديثك. أغدو أنظر إلى ما في داخلي، أتساءل
 لماذا يلاحقني طيفك دومًا؟! أكفهر سحاب فؤادي من كثرة
 تساؤلي، ويخبرني ألا تشعرين بشوقي وبحنيني إليك؟ ألا
 ترحمني ما تبقى مني وتعيدي لي بهجتي؟ حقًا، فالحق يُقال،
 أنت أنسي وبهجتي، وقمر ليالي، وحبیب عيني، يا عزيز
 الفؤاد.

انتهى الكتاب ولكن لن تجف أحبارنا

66

لم أعد أعلم هل اخادع من حولي بانني بخير أم اخادع نفسي
 بكذبة أختلقتها، أيعقل ذلك أقاومها بداخلي بمنتهى الصلابة
 وكُلّي محطم من الداخل، لا أذعن لألامي، لأوهامي، لم أكن
 يوماً هشة الوجدان، ولكن أبيت أن أكون متهدجة في ظاهري أو
 أكون افنوناً، أتمعن وأقاومها بداخلي لعل حقاً أكون بخير،
 كزهرة في وسط الربيع مُحلقة يتطاير من رائحتها العنبر
 والطيب، فلا بأس ببعض الوقت من الجرح في الوقت كفيلاً
 بتداوي جراح لم تشفي بعد.

الكاتبة الزهراء فوزي

99

a

AYA AHMED

تصميم ايتا احمد



مؤسسة يا قوت

© 2003-1983

كار يا قوت للنشر